الفلاسفة المعاصرون في أوروبا

هنري بيرجسون

• ١- الثورة المادية:

من الممكن أن يُسجَل تاريخ الفلسفة الحديثة على أنه صراع بين علم النفس والعلوم الطبيعية. فقد يبدأ الفكر الإنساني بدراسة نفسه، ويحاول إدخال العقل في دائرة الظواهر المادية وقوانين الميكانيكا. أو أن ينساق وراء ضرورة النقل فيقول إن جميع الأشياء من خلق المنطق وإنشائه.

وقد ولد اليهودي هنري بيرجسون لأبوين فرنسيين في باريس عام ١٨٥٩م، وكان طالبًا متفوقًا نال العديد من الجوائز. وفي البداية تخصص في الرياضيات والعلوم الطبيعية. إلا أن قدرته على التحليل وضعته في مواجهة مع الميتافيزيقا الكامنة وراء كل علم. فاتجه في نفس الوقت إلى دراسة الفلسفة. وفي عام ١٨٨٩م التحق بمدرسة المعلمين العليا. ثم تخرج منها وعمل معلمًا للفلسفة في إحدى المدارس. وفي ذلك الوقت ألف أول كتبه بعنوان "الزمن والإرادة الحرة" تلاه كتاب آخر بعد ثمانية أعوام بعنوان "المادة والذاكرة"، وهو أصعب كتبه. وفي عام ١٨٩٨م عين أستاذًا في مدرسة المعلمين العليا. وفي عام ١٩٠٠م عين أستاذًا في "الكلية الفرنسية" وظل معلمًا بها إلى أن مات في عام ١٩٤١م.

في عام ١٩٠٧م زادت شهرته وأصبح معروفًا في العالم كله بسبب إصداره لأروع كتبه وهو بعنوان "التطور المبدع"[1]. وبسرعة البرق أصبح بيرجسون أهم شخصية ذات شعبية كبيرة في عالم الفلسفة.

وفي عام ١٩١٤م انتُخب بيرجسون عضوًا في الأكاديمية الفرنسية. ومما هو جدير

(١) - يرى بيرجسون في هذا الكتاب أن تاريخ تطوّر الحياة -وإن كان لا يزال ناقصاً- إلا أنه يبين لنا كيف تكوّن العقل بتقدّمه المستمر على طريق صاعد يمرّ بسلسلة الحيوانات الفقرية حتى يصل إلى الإنسان. أي أنه يناقش نظرية التطور من منظور جديد. (المترجم)

بالذكر أن بيرجسون الذي سجل الضربة القاضية للمادية كان في شبابه من المتحمسين لسبنسر. وذلك لأن المعرفة العميقة تؤدي إلى الشك، والشك في النهاية يؤدي إلى الإيمان. فبعد نظرية استمرت لمدة قرن وتجارب لا تحصى، فشل الماديون في حل مشكلة أصل الحياة. وعلى الرغم من ربطهم للفكر بالعقل، فإن هذا الترابط يظل غامضًا. فإن كان العقل مادة وكانت كل عملية عقلية عبارة عن نتيجة آلية لحالات محايدة، فما فائدة الشعور؟

يقول المذهب المادي إنه لا توجد إرادة، أي أنه لا يوجد في الكون قوة تريد هذا فتفعله، أو لا تريد ذاك فلا يحدث[1]. كل ما هو موجود مجرد حالات مادية متتالية. كل حالة تنتج عما قبلها وتقدم لما بعدها. وهنا تساءل بيرجسون: "إن كان الوجود بكل ما فيه نتيجة آلية للحظة سابقة دون أن تكون هناك قوة تنشئ وتختار وتخلق. وإذا كانت اللحظة السابقة نتيجة آلية للحظة السابقة لها، فهذا التسلسل يعني أننا في دائرة وسنعود إلى ما كنا عليه. أي أن كل شيء في الوجود سيعود ترابًا مرة أخرى. ولذلك يجب أن نعتقد أن السديم الأول (التراب) هو السبب في كل سطر كتبه الشاعر الإنجليزي المعروف وليم شكسبير وأنه السبب في فصاحة هاملت وعطيل وماكبث والملك لير في كل ما قالوه في مسرحيات شكسبير الخالدة !!!

• ٢- العقل والمخ:

يرى بيرجسون أننا جميعًا نميل إلى النزعة المادية لأننا نحب التفكير في المكان. لكن الزمان أمر مهم مثل المكان أيضًا. وقد يكون الزمان هو جوهر الحياة كلها. وما يجب أن نفهمه هو أن الزمان تراكم ونمو واستمرار. والاستمرار هو الماضي الذي يكبر مكونًا المستقبل. وهذا يعني أن الماضي يبقى ويمتد إلى الحاضر ولا يضيع أبدًا. وبما أن الزمان عبارة عن تراكم صور مرت من قبل، فمن المستحيل أن يأتي المستقبل شبيهًا بالماضي. ففي كل خطوة جديدة شيء جديد غير متوقع، والتغير أكثر سرعة مما نتوقع.

---

(١) - تحايل من نوع آخر على من يقرأ فلسفته، فهو لا يقول صراحة أنه لا يؤمن بوجود إله، بل يقول أنه لا توجد في هذا الكون قوة تريد هذا فتفعله، أو لا تريد ذاك فلا يحدث. وأرد عليه بقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (البقرة ١١٧). (المترجم)

أما ذاكرة الإنسان فهي وعاء للبقاء، وهي تحافظ لنا على الكثير من صور الماضي المتراكمة حتى تكون عونًا لنا في الحاضر. وكلما اتسع مجال حياتنا اتسع معها مجال الاختيار.

كما أن الإدراك يتناسب مع قدرة الكائن على الاختيار. فالإدراك يضيء منطقة القوى المحيطة بالعمل. كما أنه يملأ المسافة بين ما تم من عمل وما يجب أن يتم منه. إنه الاختبار والتفحص. فالكائن الحي إذن -وليس الإنسان فقط- يركز في العمل لأنه يضيف إلى العالم قوة ونشاطًا. وهكذا فإن الإنسان ليس مجرد آلة ميكانيكية لا حول لها ولا قوة، لكنه مركز قوة منبهة وخالقة ومتطورة. وينتج عن الإدراك حرية الإرادة. فمعنى أننا أحرار هو أننا نعلم ما نفعل.

وقد قلنا إن مهمة الذاكرة هي استدعاء صور ذهنية مشابهة للصور الحالية من الماضي لتساعدنا في اتخاذ القرار. إلا أن لها عمل آخر وهو أنها تساعدنا على الاستمرار في لحظة ما وتحررنا من قيود الضرورة الطبيعية التي يخضع لها الجماد.

أما بالنسبة للعقل والمخ، فهما ليسا شيئًا واحدًا. فمن الصحيح أن الإدراك العقلي يعتمد على المخ، لكن هذا الاعتماد يشبه اعتماد الملابس على الشماعة المعلقة عليها، فإن سقطت الشماعة سقطت الملابس. ومن الواضح بالطبع أن الشماعة والملابس ليسا شيئًا واحدًا. فالمخ إذن هو المجرى الذي يسير فيه تيار الإدراك. وكما أن الماء ومجراه ليسا شيئًا واحدًا فالمخ والإدراك ليسا شيئًا واحدًا؟ حتى وإن كان الإدراك محدودًا بالمخ وخاضعًا له.

لكن ما الذي دعانا إلى الاعتقاد بأن المخ والعقل شيء واحد. السبب هو أن هناك شيئًا في العقل يسمي الذكاء، وهو قادر على فهم الأشياء المادية. لذلك اكتسب من المجال المادي كل قوانينه. وهكذا أخذ الارتباط الذهني بين العقل والمادة ينمو بالتدريج، وانتهى الأمر إلى أن يظن الناس أن العقل والمادة شيء واحد.

ومن كل ما سبق، نستنتج أن العقل ليس أداة تصلح لإدراك الحياة، فهذا فوق قدراته واستطاعته. فالعقل يميل إلى استخدام الوجود لصالحه. وهذا يتطلب منه وقف تيار الحياة وتجزئة الوجود لدراسته جزءًا جزءا. لذلك، فالعقل والحواس آلات تجزئة

والغرض منهما هو تيسير الحياة وليس تصوير الكون. أي أنها تتعامل مع الوجود من حولها من ظاهره ولا تمتد إلى باطنه.

لكن المعرفة الحقيقية هي التي تتمشى مع الوجود المتغير، وتدخل إلى أعماق الأشياء وتشعر بها شعورًا مباشرًا. ولهذا السبب، فالبصيرة وحدها هي الأداة الصالحة لهذا النوع من المعرفة المباشرة، فهي حاسة الحياة التي تنقل إلينا تلك الوحدة الحيوية التي تربط بين أجزاء الوجود.

• ٣- التطور الخلاق:

وهكذا يمكننا أن نعرف أن تطور الخلق مستمر، ومما سبق يتضح لنا أن التطور هو شيء أكثر من مجرد نظرية المادية، ولابد أن يكون في أجزاء هذا الوجود -مهما تنوعت أشكالها- قوة كامنة متشابهة في الجميع وهي الحياة.

والحياة أكبر من الأجسام المادية، إنها قوة تتزايد وتستطيع أن تسترد نفسها. كما أن الحياة هي الحافز المولد للعالم، وهي ضد الجمود والصدف، وتسير في اتجاه نموها. وهي تسعى للتغلب على الجمود المادي. كما أنها تتغلب على الموت بالتناسل. وتبذل كل وسعها من أجل تحرير قوانين المادة وقيودها.

وقد كانت الحياة منذ بدايتها أقرب إلى المادة في جمودها واستقرارها. فقد كانت ساكنة. لكنها ومع مرور الوقت لم تقنع بالبقاء في حالة الثبات. وبدأ التقدم وبدأت الحركة. وهكذا استمر التطور وحل الجديد في موقع القديم، فجاء الفرسان بدلاً من جنود المشاة، وحلت المدفعية محل الفرسان بدروعهم القديمة .. وهكذا. كما تطور الإنسان أيضًا وبدلاً من أن يستخدم جسده فقط أصبح يستطيع استخدام أدوات وأسلحة يحمي بها نفسه.

أما الغرائز فما هي إلا أدوات للعقل، وقد أصبحت عبئًا على الإنسان مثل بقية أعضائه وذلك عندما اختفت البيئة التي استدعت وجود تلك الغرائز. لقد كانت تلك الغرائز ضرورة للإنسان القديم لما كان يتعرض له من مواقف، أما إنسان اليوم فإن غرائزه لا تمكنه من مواجهة تعقيدات الحياة الحديثة بمرونة وسهولة. فالغرائز وسائل أمن والعقل والذكاء أدوات مخاطرة.

والحياة تحتاج إلى الحرية وعدم التقيد بقيود المادة. وإننا نضحك عندما نشاهد كائنًا حيًا يتصرف كما لو كان آلة جامدة. كما أن تلك الحياة الهندسية التي دعا إليها سبينوزا تدعو إلى الضحك والبكاء في نفس الوقت.

وهكذا يتضح لنا أن الحياة تطورت ومرت بثلاث مراحل، وهي:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة النبات، وهي أقرب إلى سكون المادة الجامدة. وقد استمر الحال كذلك آلاف السنين.

المرحلة الثانية: مرحلة الحيوان الغريزي مثل النحل والنمل، فهو يسير ويتحرك بالغريزة.

المرحلة الثالثة: مرحلة الحيوان الفقري، وقد اتخذت الحياة فيها خطوة كبرى باتجاه الحرية. لكن الغريزة لا تزال الوسيلة الأعمق لرؤية الحقيقة والوصول إلى جوهر العالم.

وهذه الحياة التي تجعل من كل فرد من كل نوع مسرحًا لتجاربها من الله. فالله والحياة شيء واحد. والله (حاشا لله) محدود ومقيد بالمادة ويحاول التغلب على قيودها خطوة خطوة[1]. والله في هذا التعريف يعني الحياة المستمرة (حاشا لله). وهو العمل والحرية (حاشا لله).

كما أن الخلق ليس أمرًا غامضًا، فنحن نراه في أنفسنا عندما نختار أعمالنا وندير حياتنا بحرية ووعي. إن ما نمر به من كفاح وآلام وطموح وهزائم، وكذلك سعينا الدائم من أجل تحسين قدراتنا وقوتنا، كل ذلك ما هو إلا تعبير عن صوت الحياة بداخلنا. إنها الحافز الحيوي الذي يدفعنا للتطور والنمو. وهكذا يتحول هذا العالم إلى مسرح يتحرك فوقه كثير من الناس.

ومن يدري، فقد تتغلب الحياة وتنتصر على عدوها الأوحد وهو الموت. ومن ثم تكون الحياة أبدية[2]. فلنفتح عقولنا إذن ونعلم أن كل شيء ممكن في الحياة إن طال

---

(١) - حاشا لله، لا أدري لماذا أجهد كثير من الفلاسفة أنفسهم في البحث والتفكير لتعريف الله (جل وعلا) فزادوا من تعقيد الأمور، بل إن بعضهم كفر تمامًا أو أصيب بالجنون. وذلك في حين أن أمامهم الأديان السماوية، واختتمت الأديان بالدين الحق وهو دين الإسلام، وفيه شفاء للصدور. (المترجم)

(٢) - هذا هو حال الفلاسفة، يعقدون البسيط وينكرون الحق الواضح، ليبدأ سعيهم في البحث عنه من جديد، وعادة ما ينتهي هذا البحث إلى ضلال وتضليل للقارئ. ألم يقرأ هذا الفيلسوف وغيره من الفلاسفة عن الخلود في الآخرة بعد الحساب في أي دين سماوي !! (المترجم)

بها الزمن. وتعالوا نفكر فيما فعلته الحياة في الغابات الأمريكية والأوروبية طوال ألف سنة. لذلك فمن السخف أن نضع العراقيل أمام أعمال الحياة العظيمة.

وهكذا نجد أن الحيوان أرقى من النبات. والإنسان أرقى من الحيوان بلا شك. أما الإنسانية جمعاء فهي تحتاج إلى الزمان والمكان وعدد لا نهائي من الحركات والتغيرات التي تحدث حتى تقضي على كل ما تواجهه من عقبات.

• ٤- نقـــــد:

ويبدو أن بيرجسون قد أراد إغلاق الطريق أمام النقاد، فقال: "أنا أعتقد أن الوقت الذي يمضي من أجل دحض الفلسفة ونقدها، سيذهب هباء." فماذا بقى لنا من أعمال النقاد؟ لم يبق إلا قليل جدًا من مقالات النقد التي وجهت إليه.

لكن أهم ما يستلفت الانتباه حين نبدأ في قراءة بيرجسون، هو أسلوبه المشرق الواضح السهل. فإن كان كلامه غامضًا في بعض الأحيان، فهذا يعود إلى خياله المليء بالأمثلة والتشبيهات.

لقد هاجم بيرجسون العقل، وطلب منا أن نأخذ بحكم البصيرة. وكان من الأفضل له أن يأمل في عقل أرقى وأشمل من البصيرة. فالبصيرة التي اعتمد عليها قد تخطئ وتصيب مثل الحواس. لذلك يجب اختبارها وتقويمها بالتجربة العملية.

وقد بالغ بيرجسون بشدة حين قال إن العقل لا يدرك إلا حالات متقطعة من الحقيقة والحياة. كما أن العقل عاجز عن إدراك ما في الحقيقة والحياة من تدفق وحركة واستمرار.

وكان من الأفضل أن يستفيد من بلاغته في الحد من إسراف المذهب العقلي في الاعتداد بالعقل إلى أبعد مدى. لكنه لم يصب عندما وضع البصيرة محل العقل، ففعلته هذه تشبه من تخلص من أوهام الشباب بخرافات الطفولة. وإن كنا نوافق بيرجسون على تجريد العقل من قيمته العليا بشرط ألا نتيح بذلك فرصة لسطوع البصيرة وحدها. فالإنسان يعيش بغريزته وبصيرته، لكنه يتقدم بعقله وذكائه.

لكن أعظم ما في بيرجسون هو هجومه على الاتجاه المادي الآلي. فقد أسرف العلماء في عملهم داخل المعامل، وظنوا أنهم قادرون على التعامل مع الكون داخل

أنابيب الاختبار. لكن بيرجسون تناول هذا الاتجاه بالهجوم حتى دون أن يجيب على أسئلة مثل:

- ما هي المادة ؟
- هل يمكن أن تكون المادة أقل جمودًا وسكونًا ؟
- وهل من الممكن ألا تكون المادة عدوًا للحياة ولكنها خادمة مطيعة لها؟

لقد رأى بيرجسون أن العلم والنفس والجسم والروح والمادة والحياة أمور تعادي بعضها. لكن في الحقيقة، فإن المادة والجسم والعلم أشياء تنتظر من العقل والذكاء والإرادة أن تشكلها.

كما أن نقد بيرجسون لنظرية دارون نابع من حسن تصرفه. فقد واصل ما بدأه الفرنسي "لا مارك" حيث رأى أن الدافع والرغبة عوامل فعالة في التطور. كما أنه رفض ما جاء به سبنسر من أن التطور ناتج عن توحيد المادة وإهدار الحركة.

وقد حظي بيرجسون بشعبية كبيرة وارتفع إلى قمة الشهرة لأنه دافع عن آمال الإنسان. وقد أحبه الناس وسعدوا به لأنه دعم في قلوبهم الإيمان بالله والخلود، وذلك دون أن يفقدوا الثقة في الفلسفة. وقد أصبحت القاعة التي كان يلقي فيها محاضراته ملتقى لسيدات فضليات، وجدن في بلاغته ما يحقق رغباتهن ويؤيد ما يؤمنّ به.

إلا أنه من الغريب أن يشارك في الاستماع إلى محاضراته اشتراكيون متحمسون، فقد وجدوا في نقده للمذهب العقلي تبريرًا لما ينادون به، وهو "التقليل من الفكر وكثرة العمل."

لكن تلك الشهرة المفاجئة التي أدهشته كان لها ثمن. فقد أدى تأييد أفراد من طبقات مختلفة له إلى تراجع عدد أتباعه. وهكذا واجه نفس مصير سبنسر الذي عاش وشاهد تراجع شعبيته بشدة.

بندتو كروتشي

• ١- الرجل:

من المستحيل أن نجد أي تشابه بين بيرجسون وكروتشي. فبيرجسون يعبر عن أفكاره في وضوح خـدّاع. أما كروتشي فهو شكاك يعبر عن أفكاره بطريقة ألمانية غامضة. بيرجسون صاحب نزعة دينية، لكنه يتحدث بأسلوب التطور. أما كروتشي فهو عـدو للكهنوت ويكتب بطريقة أمريكية. بيرجسون يهودي فرنسي ورث تقاليد سبينوزا ولا مارك. أما كروتشي فهو كاثوليكي إيطالي، تخلى عن دينه باستثناء الفلسفة اللاهوتية وعبادة الجمال.

وربما يرجع عقم فرنسا الفلسفي في القرن السابق إلى احتفاظها بأساليب المفكرين الذين تخلوا عن اللاهوت القديم. ولذلك فمن الممكن أن نصف إيطاليا بالبلاد التي ازدهرت فيها النهضة، لكنها لم تعرف الإصلاح. وإيطاليا على استعداد للتضحية بنفسها من أجل الجمال، لكنها تشك في وجود الحقيقة عندما تفكر فيها.

لكن كروتشي شذ عن البيئة الإيطالية المحيطة به. فقد ولد في مدينة صغيرة في مقاطعة "أكويلا". وكان الابن الوحيد لأسرة مسيحية كاثوليكية محافظة وغنية. وقد درس الديانة المسيحية الكاثوليكية بتعمق، وقد دفع به ذلك إلى الإلحاد. حيث لم يجد طريقًا بين الجمود الديني والكفر في بلاد لم تعرف طريق الإصلاح. وقد كان كروتشي في بداية حياته تقيًا وشديد التدين، إلا أن دراسة فلسفة ذلك الدين، حلت محل الدين نفسه في داخله.

وفي عام ١٨٨٣م تعرض كروتشي لكارثة كبرى، كان من الممكن أن ترده إلى

إيمانه[1]. فقد وقع زلزال ودمر المدينة الصغيرة التي كان يعيش فيها ومات أبوه وأمه وأخته. وقد ظل هو نفسه تحت الأنقاض لعدة ساعات، وتكسرت بعض عظامه. وبعد عدة سنوات استرد صحته. ولم يؤد ذلك إلى أي ضعف في نفسه أو فتور في همته. فقد أدت فترة النقاهة الطويلة التي مر بها إلى إقباله الشديد على القراءة. وقد استفاد من الثروة الكبيرة التي تركها له أبوه في اقتناء الكثير من الكتب. وهكذا أصبح فيلسوفًا دون أن يدفع ثمن ذلك من الفقر والحاجة. وقد حقق الحكمة القائلة وهي "الحكمة خير إن رافقها المال الموروث."

ظل كروتشي طوال حياته محبًا لقراءة الأدب والراحة. وقد دُفع إلى دخول مجال السياسة رغمًا عنه عندما عين وزيرًا للمعارف. وهكذا أصبح مثلاً فريدًا في عصره حيث جمع بين السياسة والفلسفة. وهو أمر غير مألوف قديمًا وحديثًا. لكنه لم يهتم كثيرًا بالسياسة، وقد كرس معظم وقته لمجلته العالمية الشهيرة وهي باسم "لاكربتيكا".

عندما قامت الحرب العالمية الأولى اشتعل كروتشي غضبًا، واعتبرها اتجاهًا يدمر الاقتصاد وقد يقضي عليه، كما أنه يوقف تطور العقل الأوروبي. وكان من الواجب أن يتم منع قيام تلك الحرب التي تشبه الجنون أو الانتحار. وعلى الرغم من اضطرار إيطاليا إلى الدخول في الحرب العالمية الأولى إلى جانب الحلفاء، ظل كروتشي غير مؤيد لذلك وأصبح مكروهًا من أهل بلاده. لكن إيطاليا صفحت عنه فيما بعد. وقد عقد عليه الشباب آمالهم واتخذوه مثالاً ومرشدًا وفيلسوفًا وصديقًا.

وقد قيل عن كروتشي إن فكره سيظل أعظم فكر في هذا العصر. لكن ما السر وراء تلك القوة التي تمتع بها كروتشي ؟

• ٢- فلسفة الروح:

كان أول كتاب أصدره كروتشي تجميعًا لسلسلة من المقالات نشرت في الفترة (١٨٩٥-١٩٠٠م). وكان موضوعه "مادية التاريخ ومبادئ كارل ماركس الاقتصادية". وكان كروتشي قد قرأ كتاب كارل ماركس عن رأس المال.

---

(١) - مؤلف هذا الكتاب يدرك أن أغلب فلاسفته المذكورين من الملحدين. ولذلك يصف هنا الفيلسوف فيقول: «عاد إلى إيمانه.» (المترجم)

يقول كروتشي عن ذلك: "تأثرت كثيرًا بما قرأت من مبادئ للماركسية ومتابعة الصحف الاشتراكية الألمانية والإيطالية، فتحركت نفسي وتحمست سياسيًا. شعرت بإحساس من وقع في حب امرأة لأول مرة في حياته وفي سن متأخرة. لكن سرعان ما أفقت من نشوة الاشتراكية وعدت إلى الفلسفة."

ومن بين نتائج تلك القراءات أن كروتشي عاد إلى إعلاء فكرة "فائدة المساواة عن طريق الخير والجمال والحقيقة". وقد رفض أن يفسر التاريخ على أساس اقتصادي خالص. واعتبر ذلك استسلامًا للبيئة الصناعية. كما رفض قبول المذهب المادي حتى وإن كان وسيلة للعلم أو فلسفة للبالغين. فالعقل -وليس المادة- هو الحقيقة الأولى بالنسبة له، وقد أطلق على فلسفته لذلك اسم "فلسفة الروح".

وكروتشي مثالي ولا يعترف بفلسفة بعد "هيجل". وهو يرى أن الحقيقة كلها ما هي إلا فكر. فنحن لا نعلم أي شيء إلا كما تصوره لنا حواسنا وأفكارنا. وكان كروتشي يحاول أن يبرهن على أن جوهر الكون هو أفكار مجردة. وكان لا يهتم بشرح فكرة وتوضيح نتائجها، بل كان يميل إلى الربط بين الأفكار بعلاقات عملية.

والفكرة المجردة بالنسبة لكروتشي فكرة كلية، مثل الكم والكيف والتطور أو أي فكرة أخرى يمكن تطبيقها على كل الحقيقة. ويستمر كروتشي في الحديث عن هذا الموضوع بطريقة غامضة كما لو كان هيجل قد تجسد فيه. فمن الواضح أنه أراد أن ينافس أستاذ الغموض (هيجل) وينازعه شهرته.

وفي فلسفة كروتشي، نجد مزيجًا غريبًا من الفلسفة الطبيعية والفلسفة الروحية واللاإرادية واللاحتمية والمثالية والاقتصادية وتقديس الذوق والجمال. وقد أبدى اهتمامًا بالنواحي النظرية أكثر من اهتمامه بالنواحي العملية. كما ألف كتابًا ضخمًا أسماه "فلسفة الجانب العملي" واحتوى على قدر كبير من علم المنطق مع اختلاف التسمية. كما ألف كتابًا آخر بعنوان "في التاريخ" ويرى فيه أن التاريخ فلسفة متحركة. وطالب بضرورة أن يكتب الفلاسفة التاريخ.

ويعترف كروتشي بتعذر معرفة حقيقة الماضي ويستشهد بتعريف روسو للتاريخ حين قال "فن اختيار أكذوبة تشبه الحقيقة من بين الكثير من الأكاذيب". كما أنه لا يفضل البحث النظري في التاريخ ويرى أن النظريين من أمثال هيجل

وماركس يشوهون الماضي بتحويله إلى منطق. كما يرى أن الفيلسوف الذي يكتب التاريخ يجب أن يكرس جهوده للكشف عن الروابط بين الأحداث التاريخية وأسبابها ونتائجها.

كما يرى كروتشي أنه لو قام المؤرخون بكتابة التاريخ بطريقة طبيعية تعكس الواقع فسيكون مرآة للإنسان وقد ينطبق عليه ما أسماه نابليون "الفلسفة الحقيقية الوحيدة وعلم النفس الحقيقي الوحيد".

• ٣- ما هو الجمال:

بدأ كروتشي دراسته بالتاريخ والآداب وانتهى من هذه الدراسة بالإقبال على الفلسفة. وكان من الطبيعي أن تأخذ فلسفته طريقًا يتجه إلى النقد والفن والجمال. أما أعظم مؤلفاته فهو كتاب "الجمال". وقد نُشر في عام ١٩٠٢م. وفي هذا الكتاب يعلي كروتشي من قيمة الفن ويجعله أعلى من العلم والميتافيزيقا. فهو يرى أن العلوم تقدم لنا فائدة لكن الفنون تقدم لنا الجمال. كما أن العلوم تبعدنا عن الحقيقة وتنقلنا إلى عالم مليء بالمجردات الرياضية. أما الفن فيتجه بنا فورًا إلى شخص محدد أو حقيقة فريدة.

وأعلام الفن يفهمون ما قاله كروتشي عن الفن كما هو واضح في كلام "مايكل أنجلو"، حيث قال: "الإنسان لا يرسم بيده، بل بعقله". كما أنه من المعروف أن "ليوناردو دافنشي" ظل جالسًا وهو صامت أمام لوحة قبل أن يمسها لعدة أيام، وذلك قبل أن يرسم لوحة "العشاء الأخير" فتعجله رجل الدين الذي كلفه بالعمل، فانتقم منه بجعل وجهه هو وجه يهوذا في تلك اللوحة.

فالجوهر الحقيقي للعملية الفنية يوجد في ذلك المجهود الساكن الذي يبذله الفنان وهو صامت، حتى يتصور ما سيعبر به عن موضوع ما. فمعجزة الفن لا تكمن في إظهار الصورة بل في تصور الفكرة.

فهل يساعدنا كل ذلك على الإجابة على السؤال الخالد: ما هو الجمال؟ الجمال هو تعدد الآراء بقدر ما في هذا العالم من أنفس. وكل محب للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الأمر ولا يرد له رأي. ويعتقد كروتشي أن الجمال هو التكوين العقلي للصورة الذهنية. والفارق بين الناس ليس في القدرة على قوة إخراج الصورة بل القدرة على

تكوين صورة باطنية تعبر عن موقف ما. أي أن الفرق بين أي شخص عادي وشكسبير لا ينحصر فقط على قدرة التعبير الخارجي.

كما أن الإحساس بالجمال تعبير باطني أيضًا. حيث تعتمد درجة فهمنا وتقديرنا للعمل الفني على قدرتنا في رؤية الحقيقة ببصائرنا مباشرة. حيث أعتمد أنا على بصيرتي في تخيل الصورة الذهنية لهاملت أو عطيل حينما أقرأ أعمال شكسبير. فسر الجمال هو الصورة الذهنية المعبرة سواء كانت من إنتاج الفنان أو المتفرج المتأمل لهذه الصور.

وهكذا يمكننا الإجابة على السؤال القديم الجديد: ما هو الفن؟ فنرد ببساطة شديدة: "جمال التعبير."

• ٤- نقـــــد:

أفكار كروتشي مظلمة كالليل بلا نجوم. ففلسفة الروح التي قال بها ينقصها الروح. وفلسفة الجانب العملي ليست عملية ولا يوجد أي شواهد أو أمثلة تؤيدها. ومقاله عن التاريخ لا يقوم إلا على حقيقة واحدة وهي التوحيد بين التاريخ والفلسفة[1]. ولكنه بهذه الطريقة كمن يقف على ساق واحدة، والساق الأخرى غير موجودة، وذلك لأنه لم ير أن التاريخ يتحول إلى فلسفة عندما يكون تركيبًا تحليليًا.

ولا يجب أن يكون التاريخ أيضًا ممزقًا. بحيث يتم تناول كل موضوع في كتاب أو مقال، بل يجب أن يتم تناول التاريخ بطريقة مدمجة. أي يتم تناول جميع أوجه الحياة في فترة ما في كتاب واحد موجز يتناسب مع مقدرة الفرد العادي. على أن يتم في الكتاب دراسة أوجه التشابه بين تلك الموضوعات وتأثير كل منها على باقي الموضوعات. وهكذا يمكننا أن نقدم صورة عصر كامل توضح تعقيد الإنسان وحيرته، وسيوافق الفيلسوف على كتابة التاريخ بهذه الطريقة.

أما بالنسبة للجمال، فنترك الحكم للناس. وهو يوجه له ما يلي من أسئلة:

- هل يمكن أن يكون الإنسان فنانًا بمجرد تكوينه للصورة الذهنية؟

---

(١) - وهذا هو ما أراه أنا في كثير من فلسفات وآراء فلاسفة هذا الكتاب، فالتناقض والإلحاد من السمات السائدة لكثير منهم. وكثير منهم لا يجد أي غضاضة في تناقض ما يعرضه على الناس من أفكار، وقد يراوغ ويتجاهل النقد وهو يعرف أن من يوجهه على حق. (المترجم)

- هل يمكن أن يوجد جوهر الفن في التصور الباطني فقط وليس في الإخراج؟
- ألم يحدث أن كانت لنا مشاعر وأفكار أجمل مما ننطق به من كلمات؟
- ألم نشعر بذلك من قبل؟
- كيف لنا أن نتعرف على الصورة الباطنية التي كانت في ذهن الفنان؟
- وكيف يمكننا أن نعلم إن كان العمل الفني الذي أعجبنا قد حقق مقصد الفنان أو أنه ابتعد عنه؟

ومن الممتع والمفيد والمربك لنا أيضًا أن نعرف رأي الفنانين الذين يحدثونا عن الجمال، وما هو الجمال؟ لكن للأسف، أعظم فنان معاصر لنا ابتعد عن الإجابة عن ذلك السؤال وقال: "أعتقد أننا لن نعرف أبدًا السبب الحقيقي في جمال الشيء."

برتراند رسل

• ١- عالِم المنطق:

كان برتراند رسل يحاضر في جامعة كولومبيا في عام ١٩١٤م في مادتي الفلسفة والمنطق. وكان نحيلاً وشاحبًا وضعيفًا يكاد من يراه أن يتوقع أنه سيموت فورًا. وعندما اندلعت الحرب العالمية، تألم هذا الفيلسوف المحب للسلام أشد الألم. وقد هاله أن يرى أعظم قارات العالم تتراجع إلى وضع بربري وهمجي. لكن عندما نراه بعد ذلك بعشر سنوات، نجده وقد تبدلت أحواله رغم بلوغه سن الثانية والخمسين من العمر. فقد أصبح مرحًا يفيض بالحيوية وذلك على الرغم من تحطم آماله في السنوات السابقة. كما ابتعد عنه الأصدقاء، وتقطعت جميع صلاته بالحياة الأرستقراطية التي كان يعيشها.

إنه من عائلة "رسل" وهي من أقدم عائلات إنجلترا. كما أنها من أعرقها. بل إنها من أشهر العائلات المعروفة عالميًا. وقد أنجبت تلك الأسرة العديد ممن شغلوا المناصب السياسية لعدة أجيال. فقد كان جده "لورد جون رسل" رئيسًا للوزارة البريطانية، وقد شن حربًا ضارية لتحرير التجارة وتعميم التعليم المجاني وتحرير اليهود، والعمل من أجل الحرية في كل مجال.

وكان من حق "رسل" أن يرث "ايرل رسل الثاني" إلا أنه رفض مفضلاً أن يكسب قوته من كسب يده، كما كان لا يؤمن بنظام الإرث !! وعندما فصلته جامعة كامبريدج من العمل فيها بسبب ميوله السلمية التي كانت تتناقض مع سياسة بريطانيا في

ذلك الوقت جعل من العالم أجمع جامعة له، فطاف بأنحاء العالم يلقي المحاضرات. واستقبله العالم بترحاب وسرور.

اتجه رسل في بداية حياته إلى دراسة المنطق والرياضيات، لكن وبعد الحرب العالمية الأولى أصبح يميل إلى الشيوعية. وكانت به لمحة بسيطة من الغموض، وقد تمثل ذلك الغموض في مئات الصيغ الجامدة التي كان يملأ بها كتبه، لكن هذا الغموض وجد مخرجًا له فيما بعد في الاشتراكية. وكان أول كتبه بعنوان "التصوف والمنطق" وقد هاجم فيه التصوف ومجد الطريقة العلمية في التفكير.

وهو يقول إنه لم يذهب قط إلى السينما، ولم يذهب إلا عندما قرأ تشبيهًا كتبه بيرجسون يقول: "الحياة مثل شريط السينما." إلا أنه لم يتأثر بآراء بيرجسون وكان يرى أنها مجرد شِعر جميل.

وقد قال رسل بوجوب وضوح الفكر وتبسيطه. وقد أدى به ذلك إلى دراسة الرياضيات، وذلك لما رأى فيها من دقة. وهو يرى أننا إن استعرضنا الرياضيات بطريقة صحيحة فلن نجد فيها الحقيقة فقط بل فيها جمال أيضًا.

ولعل ما جعل رسل محبًا للرياضيات الحديثة هو إهمالها للبديهيات. فقد سعد بذلك جدًا. وسعد أكثر عندما وجد أن هناك من علماء الرياضيات من تحدى هذه البديهيات وأصر على إيجاد دليل عليها. وقد سعد عندما علم أن هناك من قال إن الخطين المتوازيين يمكن أن يلتقيا في موضع ما !! وأن الكل قد لا يكون أكبر من أحد أجزائه !! فرسل يحب جدًا ترويع القارئ بألغاز محيرة، مثل: "الأعداد الزوجية نصف الأعداد كلها، ومع ذلك فهناك من الأعداد الزوجية ما يساوي كل ما يوجد من أعداد. وذلك لأن لكل عدد زوجي كان أم فردي ضعف زوجي. وهذا هو كل شيء بالنسبة للانهاية الرياضية، فهي كُلٌ يحتوي على أجزاء، وفي كل جزء من هذه الأجزاء ما في الكل من صفات."

لكن ما استهوى رسل في الرياضيات هو أنها موضوعية وصارمة ولا دخل للشخصية فيها. وهنا فقط توجد الحقيقة الخالدة والمعرفة المطلقة. كما أن النظريات الرياضية التي تم إثباتها راسخة وقوية. وهو أيضًا يرى ضرورة أن تصل الفلسفة إلى الكمال الذي وصلت إليه الرياضيات.

من المثير للدهشة أن يهبط رسل -بعد أن حلق في عالم الرياضيات وكتب عدة مجلدات في الرياضيات والمنطق- إلى سطح الأرض ويبحث في موضوعات مثل الحروب والحكومة والاشتراكية والثورة وغيرها من موضوعات دون استخدام أي منطق رياضي.

وكانت بداية رسل بالرياضيات قد أدت به إلى كثير من الشك، فقد وجد في الديانة المسيحية كثيرًا من الأشياء التي لا تتفق مع الرياضيات باستثناء قانونها الأخلاقي.

وهكذا بدأت فلسفة رسل قبل الحرب العالمية الأولى.

• ٢- المُصلح:

اندلعت الحرب العالمية الأولى، فرأى العالم رسل في صورة جديدة. فقد كان شجاعًا ومحبًا لكل البشر وغيورًا على الإنسانية جمعاء. هجر عالم المنطق وقوانينه وراح يجادل الساسة في بلاده جدلاً لم يتوقف حتى بعد طرده من الجامعة. وبعد فترة من الصراع وجد رسل نفسه طريدًا ومنبوذًا من المجتمع رغم أصله الكريم وعائلته النبيلة. وقد اعتبره كثيرون خائنًا للوطن الذي رعاه ورباه ورفعه.

كان رسل مرعوبًا مما يحدث من مذابح بسبب الحروب. وقد كانت أحاسيسه مرهفة على الرغم مما بذل من محاولات للتعقل والتجرد. فقد تأكد أن المصالح البريطانية لا تساوي الشباب الذي يموت في الحرب بعد أن يشاهدهم أهلهم وهم يسيرون بفخر وزهو إلى ميدان القتال. وقد اعتقد أنه وجد في الاشتراكية من التحليلات الاقتصادية

والسياسية ما يكشف عن أسباب المرض والعلاج. واعتقد أن الداء هو الملكية الخاصة والدواء هو الشيوعية.

وقد قال إن الملكية الخاصة نشأت في الأصل بسبب أعمال العنف والسلب والنهب والسرقة. كما أن السرقات تتحول إلى ملكيات تحت سمع العالم أجمع في مناجم الماس في كمبرلي وراند. فلا خير لأي جماعة من وراء الملكية الخاصة للأرض. ولو استمع الجميع إلى صوت الحق لأصدروا قانونًا بإلغاء الملكية الخاصة فورًا. وذلك دون تعويض للمالكين سوى دخل معتدل طوال الحياة.

وبما أن الملكية الخاصة تحت حماية الدولة، وما يحدث من سرقة للملكيات أمور شرعية وتحميها الدولة. فالدولة إذن شر عظيم. لذلك فمن الأفضل تجريد الدولة من أعمالها ومنحها لنقابات المنتجين التعاونية. كما رأى رسل أن العالم لم يبدأ تعميم التعليم إلا منذ وقت قريب. فإذا تطورت مناهج التعليم في المدارس، وأديرت المدارس إدارة حسنة ووجهت توجيهًا عاقلاً وحكيمًا يعيد بناء الأخلاق الإنسانية. فهذا هو الطريق الصحيح للتخلص مما يلحق بالعالم من جشع تجاري وانتهاكات دولية. إنه طريق أفضل من الثورة العنيفة والتشريعات المكتوبة. وقد استطاع الإنسان أن يسيطر على جميع أنواع الحياة لأن تكوينه ونموه استغرق وقتًا أكثر منها. وعندما يجد الإنسان وقتًا أطول ويديره بحكمة أكثر فقد يتعلم السيطرة على نفسه وإعادة بنائها من جديد بطريقة أفضل. لذلك فمدارسنا مفتاح المدينة الفاضلة.

• ٣- ختـــام:

أسرف رسِل في التفاؤل ومزج فلسفته الاجتماعية بالتصوف والغموض والعاطفة وهي أمور تجنبها في آرائه الدينية وفي الميتافيزيقا. كما أنه لم يطبق على نظرياته السياسية والاقتصادية نفس التدقيق والتأني والشك في البديهيات مثلما فعل مع الرياضيات والمنطق. وقد ساقه حب الكمال إلى ما يمكن أن نسميه قصائد شعر رائعة

لا تزيد عن كونها محاولات عملية لتناول مشكلات الحياة. فمن الممتع أن نفكر في مجتمع يحترم فيه الناس الفن أكثر من الثروات مثلما يريد رسل، لكن الواقع يقول إن الفن ينمو ويترعرع في ظل الثروة ورأس المال. ومن المستحيل أن يحل الفن محل الثروة أو يكون بديلاً لها.

لكن ليس من الضروري أن نبحث عن عيوب هذا الحلم الجميل الذي صوره لنا رسل، فتجربته الشخصية أكبر ناقد له. فقد سافر إلى روسيا ووجد نفسه وجهًا لوجه مع محاولة تشكيل مجتمع اشتراكي. وقد أوشكت الصعاب التي واجهت تلك المحاولة على تهديد إيمانه بالاشتراكية وتراجعه قليلاً، كما خيبت الحكومة الروسية أمله بتراجعها أمام بعض الإجراءات. وأثارت الإجراءات التي اتخذتها من كبت للحريات وتقييد للصحافة سخطه وضيقه. كما فشل مشروع تأميم الأراضي وخضع أمام وجود الملكية الخاصة. فالناس لن تزرع الأرض وتتعب فيها إن علموا أن ملكيتها ستنتقل إلى الحكومة. وهنا بدأ برتراند رسل يفهم بأن الانقلاب الروسي بما فيه من بطولات ما هو إلا عودة إلى روسيا كما كانت في عام ١٧٨٩م.

لكنه شعر براحة أكثر عندما سافر إلى الصين، وظل هناك لمدة عام يحاضر فيها. فقد وجد الصين أقل آلية وبطيئة الخطى. وقد أدرك رسل أن أوروبا ما هي إلا تجربة كاذبة إذا ما قورنت بالصين. فقال:

"هناك أدركت أن الجنس الأبيض ليس مهما مثلما كنت أعتقد. فلو أبيدت أوروبا وأمريكا في الحرب، فهذا لا يعني فناء الجنس البشري، سيظل بالعالم عدد كبير جدًا من الصينيين. والصين أعظم ما شاهدت من الأمم، ليس من حيث العدد والثقافة فقط، بل أعتقد أن عندهم أعظم العقول. فلا أعرف أن هناك حضارة مدنية أخرى لها ما للصين من عقل وواقعية ورغبة في مواجهة الحقائق كما هي دون أن تشوهها أو تضعها في قالب محدد."

وكان من المستحيل أن تظل فلسفة برتراند رسل الاجتماعية كما هي دون تغيير بعد أن انتقل من إنجلترا إلى أمريكا ثم روسيا والهند والصين. فقد رأى أن العالم واسع جدًا ويستحيل وضعه في صيغ المنطق والرياضيات. كما أن هذا الاتساع لن يسمح للعالم بالسير بالسرعة التي يريدها له الفيلسوف رسل، فقد أصبح أكبر سنًا وأكثر حكمة. وقد علمه هذا النضج الاعتدال، فأدرك صعوبة الإصلاح الاجتماعي.

هذا هو برتراند رسل الذي كان قادرًا على سبر أعماق الميتافيزيقا وأدق قوانين الرياضيات ببساطة ووضوح. وقد درس موضوعات جافة، ومع ذلك فقد كان يفيض حيوية وحبًا للإنسانية جمعاء. ولم يكن متملقًا لأحد. ويسعدني أنه لا يزال قويًا وصادقًا، وشعلة تضيء نورًا. ومن يدري فلعل السنوات القادمة تزيد من حكمته بعد أن كُتب اسمه بين أسماء عظماء الفلسفة فعلاً[1].

(١) - هذا الكلام يعبر عن أمنيات مؤلف الكتاب (ول ديورانت) لبرتراند رسل بالتوفيق، فقد كان (رسل) على قيد الحياة عندما كتب ول ديورانت هذا الكتاب، حيث ولد برتراند رسل في عام ١٨٧٢م، وكتب ول ديورانت هذا الكتاب عام ١٩٢٦م، وتوفى رسل في عام ١٩٧٠م. وتوفى مؤلف الكتاب في عام ١٩٨١م، وكلاهما عاش أكثر من ٩٠ عامًا. (المترجم)